بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شاء ربنا من شئ بعد .

اللّهم إنّا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ، ولا نكفرك ، ونخلع ونترك مَنْ يفجرك .

اللّهم إيّاك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك .

اللّهم نعوذُ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك .

ونُصلّى ونُسلّم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك ، وأمينك على وحيك ، محمد بن عبد اللّه ، الذى أرسلته رحمة للعالمين ، وحُجّة على الناس أجمعين ، بشيراً ونذيراً ، وداعياً إليك بإذنك وسراجاً منيراً ، فأدّى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وبيّن للناس ما نُزّل إليهم من ربهم ، وترك أمته على المحَجّةِ البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

فصلِّ اللّهم عليه وعلى آله ، وسلّم تسليماً كثيراً ، كما صلّيْتَ على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد .

وارض اللّهم عن أصحابه الغرّ الميامين ، الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ، وعن الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فإن أعظم نِعَم اللّه - تبارك وتعالى - علينا وأتمها وأبقاها : أن هدانا للإسلام . دين اللّه الذى أنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ولا يقبل ديناً غيره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عندَ اللّه الإِسْلَامُ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

أكمله اللّه لنا ، وأتمّ به النعمة علينا ، وكان له سبحانه علينا بذلك أعظم الفضل والمنة : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (٣) .

حرَّف أهل الكتاب قبلنا كتاب اللّه الذى أُنزل إليهم ، وبدّلوا دين اللّه الحق ، وكتبوا الكتب بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند اللّه ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ولوَوْا ألسنتهم بالكتاب ليُحَسب من الكتاب وما هو من الكتاب ، ثم حرَّفوا الكتاب مرة أخرى تحريفاً معنوياً ، بأن فسَّروه تبعاً لأهوائهم ، وخدمة لأغراضهم ، فضلّوا وأضلوا .

وزاد الأمر خبالاً أنهم : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّه ﴾ (٤) يُحلّون لهم ما شاءوا مما حرَّم اللّه ، ويُحرِّمون عليهم ما أرادوا مما أحلَّ اللّه ، فيطيعونهم طاعة العابد لمعبوده ، لا يُسألون ولا يُناقَشون ، فقد جعلوا لهم سُلطاناً مع سلطان اللّه عَزَّ وجَلَّ ، فتعالى اللّه عما يشركون .

بل جعلوا لمجامعهم المقدسة ، أو لرئيسهم الدينى الأعلى ( البابا ) سُلطة تغيير العقائد بالإضافة إليها أو الحذف منها .

وإننا لنحمد اللّه تعالى - نحن المسلمين - أن أنزل علينا كتاباً تولى حفظه

---

(١) آل عمران : ١٩ (٢) آل عمران : ٨٥

(٣) المائدة : ٣ (٤) التوبة : ٣١

بنفسه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢) .

هو كما وصفه منزله جلّ ثناؤه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

أنزله تعالى : ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) .

فوضع به أسس العقيدة وقواعد الشريعة ، وكليّات الدين ومبادئه الأساسية فى الاعتقاد والفكر والتشريع والسلوك .

ختم الله به الكتب ، كما ختم بمحمد - الذى أنزل عليه - الرسل ، وكلّفه - صلوات الله عليه - أن يُبيِّنه للناس ، فكانت سُنّته - صلى الله عليه وسلم - البيان النظرى والتطبيق العملى لكتاب الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٥) .

وهكذا فعل صلى الله عليه وسلم : علّم وبيّن ، وبلّغ وأرشد ، وطبّق ونفّذ ، وكان لنا فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، فما ترك أمراً يقربنا من الله تعالى ، إلا أمرنا به ، ولا أمراً يُبعدنا عن الله تعالى إلا نهانا عنه ، نطقت بذلك سُنّته ، ودلّت على ذلك سيرته ، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون ، وأصحابه المهتدون ، وبذلك قامت الحُجّة ، واتضحت المحَجّة ، وعصم الله الأمة من الضلالة ، وحماها من الجهالة .

---

(١) الحجر : ٩
(٢) فصلت : ٤٢
(٣) المائدة : ١٥ - ١٦
(٤) النحل : ٨٩
(٥) النحل : ٤٤

وبهذا تحددت مصادر المعرفة بأحكام الإسلام ، وبعبارة أخرى : تحددت « المرجعية العليا » للإسلام .

فليست هى لجمع من المجامع الدينية أو العلمية ، كما عُرِف ذلك عند النصارى ومجامعهم المسكونية المقدسة .

وليست هذه المرجعية لرئيس دينى ، مهما علا كعبه فى العلم والتقوى ، فليس لدى المسلمين « بابا » يوصف بالقداسة والعصمة ، كما عند غيرهم .

وليست هذه المرجعية لمدرسة أو مذهب ، أو طريقة ، قلّدها مقلّدون فى مجال الاعتقاد والفكر ، أو فى مجال الفقه والتشريع ، أو فى مجال التربية والسلوك .

فما وُجِدَ من ذلك فى تاريخ الإسلام وتراثه إنما هو اجتهادات بَشر غير معصومين ، فى فهم الإسلام والعمل به ، يُؤخذ منهم ، ويُرَد عليهم ، مَنْ أصاب منهم فله أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر ، ما دام هذا الاجتهاد صادراً من أهله فى محله ، مصحوباً بالنيّة الصالحة .

تحددت المرجعية العُليا فى الإسلام للمصدرين الإلهيين المعصومين : القرآن والسُنّة ، اللذين أُمِرنا باتباعهما ، وأن نرد إليهما ما تنازعنا فيه .

وإن شئت قلت : هو مصدر واحد ، أو مرجع واحد ، هو « الوحى الإلهى » ، سواء أكان وحياً جلياً متلواً ، وهو القرآن ، أم وحياً غير جلى ولا متلو ، وهو السُنّة .

أما عمل « العقل الإسلامى » فى تفسير القرآن ، وشرح الحديث ، واستنباط الأحكام ، فلا عصمة له فى مفرداته وجزئياته . ولكنه - فى مجموعه - ضرورى لفتح المغاليق ، وتبيين الطريق ، وترشيد الفهم ، وتسديد الاستنباط والاجتهاد ، حتى لا تزل الأقدام ، وتضل الأفهام .

ومن هنا حرص الإمام الشهيد حسن البنا - وهو يُقدِّم أصوله فى فهم الإسلام - أن يحدد مرجعيته من أول الأمر ، تحديداً لا لَبْس فيه ولا غموض ، فبيّن « أن القرآن الكريم والسُنّة المطهرة هما مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام » .

وهذا المبدأ مما لا يجوز أن يخالف فيه مسلم رضى الإسلام ديناً ، فهذا موجَب عقد الإيمان : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ (١) .

وإنما يأتى الخلاف - وربما العناد والمشاقّة - فى الفهم والتفسير ، لقصور فى العلم ، أو اضطراب فى الفكر ، أو خبث فى القصد ، أو كيد للدين .

لهذا كان من الأهمية بمكان : التنبيه على أهم المعالم والضوابط ، وأخطر المزالق والمحاذير ، فى فهم الأصلين المعصومين ، وتفسيرهما ، وأن نطيل النفس فى ذلك بعض الإطالة ، لخطورة الموضوع ، واختلاف المدارس الإسلامية فيه بين الإفراط والتفريط ، ودخول غير الإسلاميين فى المعمعة للتشويش والتشويه .

هذا مع أن لنا دراسة خاصة فى فهم السُنّة النبوية والتعامل معها ، قد نشرها المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ونُعدّ دراسة أخرى مستقلة ومستفيضة فى كيفية التعامل مع القرآن الكريم أيضاً ، أرجو أن يمدنا الله تعالى بتوفيقه وعونه لإتمامها قريباً على وجه يرضيه .

فما ذكرته هنا فى شرح هذا الأصل لا يُغنى عن الرجوع إلى الكتابين المذكورين .

فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ (٢) .

الدوحة : المحرم ١٤١٣ هـ - تموز ( يوليو ) ١٩٩٢ م . الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوى

* * *

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) آل عمران : ٨ ، ٩